صائفة الجامعة المصرية الطيبة السنة النوبيرية

المنتخبات للطفى السيد

للدكتور زكى مبارك

— ٥ —

المنتخبات — شخصية لطفى السيد — أسرار المنتخبات — أسلوب لطفى السيد — القول الفصل — وطنية لطفى السيد

حديث اليوم عن الجزء الأول من « المنتخبات » وهو مختار ما نشر فى « الجريدة » من ٢٥ إبريل سنة ١٩٠٨ إلى ٥ سبتمبر سنة ١٩١٢ ، بقلم الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا مدير الجامعة المصرية

وجامع هذه « المنتخبات » هو الأستاذ إسماعيل مظهر المحرر بالمجمع اللغوى ، وهو باحث معروف بالتعمق والاستقصاء ، وقد بذل جهوداً محمودة فى الصحافة والترجمة والتأليف ، فمن الحقوق أن تمر هذه المناسبة بدون أن نخصه بكلمة ثناء ، وإنه لخليق بكل إعزاز وإجلال ، أسبغ الله عليه ثوب العافية ، وكتب له دوام التوفيق فيما يعالج من الدراسات الأدبية والعلمية !

تجرع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً، وإن أحياك أحياك عزيزاً .

وقد كانت سيرة الرسول صلوات الله عليه وسير أصحابه والمسلمين من بعدهم امتثالاً لأمر القرآن ، وتصديقاً لبشارته ، وإكباراً لتربيته ، فقابلوا العدد الكثير والخطوب المتزاحمة بإيمانهم وصبرهم ، ولم يعسر عليهم مطلب ، ولا أملّهم دأب ، ولا فاتت عزائمهم غاية ، ونالوا جزاء الصابرين فى الدنيا طمأنينة وظفراً وغلبة ؛ والله ولى جزائهم فى الآخرة

وما كان صبرهم استكانة للمصائب ولكن استخفافاً بها ، ولا ذلاً للخطوب ولكن كبراً عليها ، ولا خنوعاً للقوة ولكن ثباتاً لها ، وتصميماً على صدمها ، والظفر عليها . يقول القرآن الكريم : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » .

صدق الله العظيم عبد الوهاب عزام

ثم أقول إن الأستاذ إسماعيل مظهر أشار بكلمات قصار إلى أنه آثر أن يخرج هذه « المنتخبات » بدون مقدمة « ذلك بأن المؤلف يجل عن أن يقدم له كاتب من أبناء هذا الأهل » ولم أفهم المراد من « هذا الأهل » ولعله يريد « هذا الجيل » ، وللعبارة وجه ، ولكنه لا يخرجه عن الإغراب فى غير موجب للإغراب

ويظهر أن هذا الصديق يفهم أن مقدمات المطبوعات لا يراد بها إلا التنويه بأقدار المؤلفين ؛ ومن هنا صح عنده أن لطفى السيد غنىٌّ عن التعريف ، فهو أجلّ من أن يقدم له كاتب من أبناء هذا الجيل

ولو تأمل لعرف أن المقدمات يراد بها أيضاً شرح أغراض المؤلفين ، والتنبيه على مذاهبهم فى فهم الحياة وسياسة المجتمع ؛ وبذلك يكون من الواجب أن يقدَّم لمنتخبات لطفى السيد ، لأنها تحتاج إلى من يدل على ما فيها من مذاهب وآراء

يضاف إلى ذلك أن هذا الصديق نصَّ على أنه عُنِىَ « بأن يخرج الكتاب مبرءاً من الأوهام » فما تلك « الأوهام » التى يشير إليها بهذا التعبير المريب ؟ أيكون تدخَّل فى عبارات المؤلف بالحذف والإيصال ؟ أيكون طوى بعض الأغراض لأسباب متصلة بتطور أفكار المؤلف ، وتبدل ما كان يحرص عليه من أقوال ؟

إن كان شىء من ذلك فقد كان من الواجب أن يشير إلى ضروب تلك « الأوهام » لأن لطفى السيد له فى الحياة الفكرية تاريخ ، ومن كان فى مثل مركزه الأدبى فهو جديرٌ أن تؤرَّخ تطورات فكره بلا تحسين ولا تجميل

شخصية لطفى السيد

لا أنكر أنى لقيت عنتاً فى قراءة هذه المنتخبات ، لأن المؤلف لا يصل إلى شرح أغراضه إلا بعسر وعُنف ، وإن قيل ما قيل فى قدرته على البيان

ولكن القيمة الصحيحة لأستاذنا لطفى السيد باشا ترجع إلى أنه كان فى جميع أدوار حياته « شخصية » ، ولو أردت الدقة فى وصفه لقلت إنه كان Phénomène فهذه الكلمة الفرنسية تمثله أصدق تمثيل ... ألم يقولوا إنه أول كاتب عربى تحدث عن الديموقراطية والديماجوجية ؟

كان هذا الرجل ولا يزال قوىّ الحواسّ إلى أبعد الحدود ،

وله فى كل مسألة مَلحظٌ خاصٌ ، وهو يجمع بين البداوة والحضارة فيما يتناول من شؤون الفكر والمعاش . وقد استطاع بقوة الذاتية أن يكون رجلاً مرموق المكانة فى آماد طوال ، وربما صح القول بأنه أظهر البقية الباقية من الجيل الذى ظهر فيه ، ولا يمكن ذلك لرجل غير مزوَّد بالزاد الأصيل من عافية البدن والروح

وكتابات هذا الرجل لا تصور ما يملك من المواهب ، لأن قلمه أضعف من روحه ، ولأنه فى سريرة نفسه يهيب المجتمع ، وإن اشتهر بالثورة على المجتمع ؛ وإنما تظهر قيمة لطفى السيد حين يتحدث إلى أصفيائه بلا تكلف ولا افتعال ، فعندئذ يظهر جيداً أنه خليق بما تسامى إليه من التفرد بين رجال العصر بشرح آراء أرسطاطاليس

لطفى السيد كاتباً رجلٌ هيوب ، ولكن لطفى السيد محدثاً رجلٌ شجاع ، ومن هنا كان تأثيره بالكتابة أضعف من تأثيره بالحديث ...

والحذَر المأثور عن لطفى السيد هو الذى قضى بأن تمرّ ثورته الفكرية بلا صخب ولا ضجيج ، كما مرّت ثورة محمد عبده وثورة قاسم أمين

فكيف أصيب لطفى السيد بمرض الحذَر ، وهو مرض يشلّ عزائم الرجال ؟

يرجع السبب فيما أفترض إلى أن الرجل بدأ جهاده الأدبى والسياسى فى عصر كانت تغلب عليه فورة الأقاويل والأراجيف ، فكان مَثَله فيما يكتب مَثَل من يمشى على الشوك . ثم انتقل من التطبع إلى الطبع ، فكان آية من آيات الحذر والاحتراس

وأضرب المَثَل فأقول : أشرف لطفى السيد على الجامعة المصرية فى عهدها القديم وعهدها الجديد عشرين عاماً أو تزيد ؛ فهل ظهر له فى توجيه سياستها العلمية شأنٌ خاص ، مع أنه فى حقيقة الأمر قد أثّر تأثيراً شديداً فى أكثر ما امتازت به من الشؤون ؟

تاريخ لطفى السيد فى الجامعة المصرية ليس بشىء ، وهو مع ذلك كل شىء ، وتلك هى النقطة ، كما يعبِّر لافونتين !

وقد عرفت بالتجربة أن لطفى السيد من الحكماء ، فقد أراد هذا الرجل فى ظروف كثيرة أن يغيِّر من أسلوبى فى نقد الحياة والمجتمع ، ولكنه لم يفلح ، لأننى أردت غير ما يريد . أنا أردت ما كان يسميه فى شبابه بالحقيقة المارية ، وهو أراد ما هدته إليه التجاريب من مصانعة الناس والزمان

والمهم هو أن أسجل أنك لا ترى لطفى السيد إلا حكيماً فى كل شىء . هو صورة صحيحة من صور العقل الصحيح ، لأنه أقام حياته على « الاعتدال » فلا يسرف فى الحب ولا فى البغض ، ولا يجهل الوسط بين النشاط والخمود ، ولا يغيب عنه أن اليوم له أغداء[1] ، وأن ما توجبه الساعة الحاضرة قد يمتد وقته إلى عام أو عامين ، ثم السخف أن يقتل الرجل نفسه ليقال إنه أنشط الرجال

أسرار « المنتخبات »

نحن أمام كتاب ممتع يقع فى اثنتين وثلاثين وثلثمائة صفحة بالقِطع المتوسط . وكلمة « ممتع » لها عندى مدلول خاص ، فليس المراد أن هذا الكتاب يجذب القارئ إلى مصابرة المؤلف من الألف إلى الياء ، هيهات هيهات ! فما استطعت استيعاب موادّ هذا الكتاب إلا بمشقة وعناء

وإنما المراد هو وصف هذا الكتاب بجودة المحصول ، فهو شاهد على ما يملك المؤلف من قوة الفكر والعقل ، وهو شاهد على أن المنطق من أقوى خصائص الرجل الذى شغل نفسه بترجمة أرسطاطاليس ، وهو دليل على حصافة الرجل الذى لم ينس العناية بهندامه فى لحظة من اللحظات ، ولو كان فى قرار الخلوة بعقله الدقيق

لطفى السيد فى كتابه هذا مفكر حصيف ، وإن تبذَّل فى عرض بعض التوافه من الشؤون : كالحديث عن زينة النساء ، والحديث عن عيوب « الانتخابات » ، والحديث عن أوهام الفلاحين !

ولكن ما نسميه اليوم « توافه » لم يصر كذلك إلا لكثرة ما خاضت فيه أقلام الكتاب ، وقد كان قبل ثلاثين سنة من الأمور ذوات البال

(١) الأغداء جمع غد

وبهذا نعرف أن ما نراه اليوم من المبتذل كان قبلاً من الطريف

قد يقال : وما الذى أوجب أن تثبت بعض الموضوعات البائدة فى « المنتخبات » ؟

ونجيب بأن تلك الموضوعات لا يراد بها تعليم أبناء اليوم ما لم يعرفوه ، وإنما يراد بها تسجيل بعض مشكلات المجتمع فى العهد الذى أثيرت فيه ، فهى من أسانيد التاريخ ، وللتاريخ ألوان

ومن هذا الباب ما جاء فى كلام المؤلف عن صلة مصر بالدولة العثمانية ، وما قص من أخبار السوريين المقيمين بمصر ، وما تحدث عن رحلاته فى بعض بلاد الغرب والشرق ؛ فكل أولئك لا يهم شبان اليوم إلا من جانب واحد هو التاريخ

لطفى السيد فى كثير من آرائه رجل وسط ، ولكنه قد يحلق من حين إلى حين تحليق الجوارح ، كالذى صنع وهو يتحدث عن أحمد عرابى باشا ، فقد سجل أن عرابى ليس وحده المسئول عن الثورة التى انتهت بالاحتلال . وحجة لطفى السيد فى هذا الحكم الطريف أنه لم يثبت أن العرابيين قتلوا رجلاً واحداً لأنه تنبأ بسوء الخاتمة وحذر من عواقب الثورة . ومعنى ذلك أن الثورة كانت فورة شعبية ، فليس من العدل أن يطوق بآثامها عرابى حين انتهت بتلك النتيجة السوداء

وفى « المنتخبات » فصل يبدو لأول نظرة من المبتذلات ، لأنه فى موضوع مطروق ، وهو الكلام عن الثقة بين الناس .

ولكن هذا الفصل هو غرة هذه المنتخبات ، وليته يضاف إلى مظالمات التلاميذ

ومن هذه المنتخبات نعرف أن لطفى السيد زار « المدينة المنورة » وكتب عنها فصولاً تعد من الروائع ، وكلامه فى توديع والديه ينشهد بأن هذا الرجل من أرباب القلوب

حدث والديه بأنه سيغيب « ثلاثين » يوماً فبكيا ، ثم ترفق فأخبرهما أنه سيغيب شهراً واحداً فاستراحا . وتلك دعابة لا تحتاج إلى من يدل على ما فيها من لطف وظرف

ولم يفت لطفى السيد عند زيارة المدينة أن يصور شعوره الدينى تصويراً هو الغاية فى الروعة والجلال

وقد استطرد فتحدث عن المرأة العربية وعن لغة العرب « فى بلاد العرب » حديثاً ينشهد بأنه مفطور على التطلع والاستقراء

وفى المنتخبات فصل عنوانه « أحبوا الجمال تحبوا الحياة » وقد بلغ الغاية فى دقة النظر حين قرر أن تقدمنا فى الأذواق لا يتناسب مع تقدمنا فى العلوم ، وهو يشهد بأن وقار بعض الناس ليس إلا صورة من صور الجمود !

وكلامه عن الصداقة كلام نفيس ، ولعله استوحى هذا المعنى مما كان بين قاسم أمين وسعد زغلول

أما كلامه عن الحب العصوف فهو كلام رجل يخاطب عوام الناس فى صحيفة سيارة ، وإن كان صدق حين قرر أن ذلك الحب يفسد الشعوب إذا تخلق به جميع الرجال

وحديثه عن قاسم أمين يدل على إعزازه لحرية العقل والرأى ، وفيه عبارة تشهد بأن الخطوب هى التى تؤرث مواهب العبقريين

وأسفه على حرمان أهل القاهرة من دخول حديقة الأزبكية بالمجان له مدلول

وأحاديثه الصوارخ عن الآباء والأمهات والأبناء والبنات تشهد بأن الفكرة الإصلاحية سيطرت على عقله منذ أعوام طوال

أسلوب لطفى السيد

جاء فى المنشور الذى أذاعته مراقبة الامتحانات بوزارة المعارف على نظار المدارس الثانوية أن الطلبة الذين تقدموا لمسابقة الجامعة المصرية سيسألون عن أوصاف الأساليب من قوة وضعف ، فما أسلوب لطفى السيد فى الجزء الأول من المنتخبات ؟

هو أسلوب لطفى السيد قبل ثلاثين سنة ، وكان فى مطلع حياته الأدبية ، ولم يكن تمرس على « بناء الجمل » بناء يعز على عوادى التصدع والانحلال

أسلوب لطفى السيد بطىء الحركة إلى حد الجمود ، وهو خال من البشاشة البيانية ، وليس فى كتابه صفحة واحدة تشهد بأن بيانه من وحى الطبع أو فيض الوجدان

لطفى السيد كاتب متمهل متكلف ، وهو يجر جر كلامه بتثاقل وإبطاء ، ولولا البوارق الفكرية التى تلمع فى كلامه من وقت إلى وقت لعد من المتخلفين

ومن المؤكد أن أسلوب لطفى السيد قد مرن بعد ذلك كثيراً أو قليلاً ، وشاعت فيه الحركة والحياة ، ولكن من المؤكد أيضاً

أن لطفي السيد قد طبع أسلوبه بطابع نفسه من التهيب والاحتراس ، والتخوّف لا يكاد يُبين

أقول هذا وأنا مُشفِق ، فليس من الذوق أن أستبيح الحكم على أسلوب لطفي السيد بكل ما أطمح إليه من الحرية والصدق ، ولكن لطفي السيد أكبر من أن ينتظر كلمات المداهنة والرياء ، ومقامه في التاريخ الأدبي الحديث في غنًى عن التلطف المأثور عن بعض تلاميذه الأوفياء

وضعفُ الحركة والحياة في أسلوب لطفي السيد لا يمنع من الاعتراف بأنه من المشاهير بين أصحاب الأساليب ، فقد يكون مقامه بين كتاب القرن الرابع عشر مقام ابن خلدون بين كتاب القرن التاسع ، ومعنى ذلك أنه تحرر من الزخرف كما تحرر ابن خلدون ، فكان أسلوبه ملحوظ الخصائص بين أساليب معاصريه من أمثال حفني ناصف وعبد العزيز جاويش

ولطفي السيد له ألفاظ في المنتخبات تحتاج إلى تعريف :

من ذلك كلمة « الدولة » وهي كلمة لا تُذكر بدون تخصيص إلا حين يريد الدولة العثمانية ، فعلى الطلبة أن يراعوا ذلك

و « التعليم الأدنى » في كلام لطفي السيد هو التعليم الأولى والجامعة المصرية في كلامه لا يراد بها الجامعة التي تُنقِلُ ربوعها الأواهل إلى الجيزة الروحاء ، وإنما هي « الرابطة المصرية » أو « الآصرة المصرية »

والمجتمع في كلامه هو الجمعية ، وعنه نَقَل حافظ عفيفي باشا وهو يكثر من ألفاظ المناطقة من أمثال « المقول » و « المحكومية » و « المأصدقات »

وقد يتسامح في بعض الألفاظ الأوربية ، فيساير في نطقها عوامّ الناطقين ؛ كأن يقول « اللورد كرومر » والصواب « لورد كرومر » لأن « كرومر » مضاف إلى « لورد » وليس عطف بيان . وتلك غلطة وقع فيها الأستاذ أحمد أمين وهو يقدم ديوان حافظ ابراهيم

والنحت العربي حيران عند إضافته إلى الموصوف ، فقد يُعرّى من اللام كما وقع في أمثال عبارة « الرجل الفلاح طويل القامة ، كبير الرأس ، كثيف اللحية » وقد يحلّى باللام في مثل عبارة « الحديث القليل القيمة »

وقد يغيب وجه الإعراب عن أستاذنا لطفي السيد في بعض الأحايين ، كأن ينصب « الصفات » بالفتحة كما ينصب « الذات » وهي غلطة غير مطبعية ، وقد يُشكل عليه الرسم الإملائي أحياناً فيرسم ألفاً بعد الواو من « يدعو الرجال » وهو ينسى أن الألف الفارقة لا ترسم إلا بعد واو الجماعة ، وتلك دقيقة إملائية تخفى على بعض الناس ؛ ولعلها لم تخف إلا على مصحح الكتاب

ويقول « أَلْفَتَ » والصواب « لَفَتَ »

ويتعرض للغة أحياناً فيخطئ ، كأن يمر بكلمة « التقمر » فيرى استعمالها في الذم غير صحيح ، وحجته أن الكميت يقول :

لبالقرن قُصُور الأمر تروية والباسطون أكفّاً غير أصفار

والمتأمل يدرك أن للتقمّر « تفعُّل » وهو من صور التكلف كالتشدّق والتصنّع

القول الفصل

والقول الفصل أن أسلوب لطفي السيد في المنتخبات هو أسلوبه قبل ثلاثين سنة ، يوم كان قليل الاحتفال بالأداء ، ويوم كان قليل المحصول من ثروة اللغة العربية ، كما صرح هو نفسه بذلك في الصفحة ١٦٢

ويجب وفاء للحق والتاريخ أن نسجل أن لطفي السيد اهتم بعد ذلك بالتزود من اللغة العربية ، حتى جاز له أن يشارك في بعض المحاورات النحوية والبلاغية ، وحتى صار بالفعل من أعرف الناس بخصائص الأساليب

ذكّره الله بكل صالحة ، فله علينا فضلٌ لن ننساه ، ولو طال الزمان

أما بعد فهذا لطفي السيد باشا في أبرز نواحيه ، كاتباً ومفكراً ومديراً للجامعة المصرية ، ولكن بقيت كلمة يفرضها الواجب رعاية لحق التاريخ

كنا نسمع في عهد الحداثة أن « حزب الأمة » الذي تعبّر عنه « الجريدة » يسالم الاحتلال

فهل في « المنتخبات » ما يؤيد ذلك ، وكان لطفي السيد رئيس التحرير لتلك « الجريدة » ؟

كان « حزب الأمة » يمثل فكرة الاعتدال ، ولكن مقالات لطفي السيد لا تشهد بأنه كان يسالم الاحتلال

وكيف تجوز مسالمة الاحتلال على من يقول :

«الديار محتلة بأجنبي لاهو صريح تقدر لشقائنا معه حداً، ولا نحن معه من الرجاء أو من اليأس في إحدى الراحتين » ؟

كيف تجوز مسالمة الاحتلال على من يرثي مصطفى كامل أصدق الرثاء ، ثم يعلن رأي قاسم أمين في أن وجيعة الشعب لوفاة مصطفى كامل فرصة لإذكاء الروح الوطني ؟

كان لطفي السيد من أنصار الاعتدال ، ولكنه لم يكن أبداً من المفرطين في حق القومية ، ومقالاته هي الوثائق الباقية لجهاده في سبيل الحرية والاستقلال .

والناس يشهدون اليوم تمثال مصطفى كامل في أحد الميادين الجميلة بالقاهرة ، فمن يبلغهم أن لطفي السيد كان من أوائل الداعين لإقامة ذلك التمثال مع أنه كان من خصوم الزعيم الأول للحزب الوطني ؟

لا يؤخذ على لطفي السيد إلا عيب واحد : هو أنه لم يستهدف لأي خطر في سبيل حرية الفكر والعقل والوجدان، وبذلك خلت آثاره من اللهب الذي احترق به المبدعون من أقطاب الفكر والبيان ، والسلامة ليست مغنماً نفيساً في أنظار أكابر الحكماء

لا يزال لطفي السيد قوة حاضرة ، فهل يجرب الثورة على نفسه مرة واحدة فيخرج من بعض ماله لينشر مجموعة كاملة المختار من آثاره في الأعوام الخوالي ؟

إن أخذ بهذا الرأي فسيحدد مكانه الصحيح في التاريخ الأدبي الحديث

وإلا فسيصير إلى ما صرت إليه يوم عقمت نصائحه الغالية في مصانعة الناس والزمان

وإلى أستاذي وصاحب الفضل عليّ ، إلى أحمد لطفي السيد باشا مترجم أرسطاطاليس ومدير الجامعة المصرية ، أقدم واجب الثناء ، راجياً أن يتناسى ما مرّ بهذا المقال من عبارات لم تكن على خشونتها إلا شاهداً على اتصالي الروحي بعقله الحصيف .

زكي مبارك

تعاليم الرجولة

للأستاذ محمد كامل سليم بك

سكرتير مجلس الوزراء

١ — لا تلم غيرك على إهمالك، واحتمل بشجاعة نتائج أعمالك

٢ — الاعتذار ضعف ، فلا تعتذر لكائن من كان ، ولا سبيل إلى تلافي الاعتذار إلا إذا آليت ألا ترتكب ما يستدعي الاعتذار منه

٣ — لا تيأس : إذا المرض أصابك ، وإذا الحزن دهمك وإذا الإخفاق صدمك ، وإذا الصديق خدعك وإذا العدو غلبك ، وإذا الحظ نكبك إذ مهما اضطربت الأمور وأظلم الجو فإنك بالصبر والعمل والشجاعة منتصر لا محالة

٤ — لا ترجُ من اللئيم أن يصفح ، ولا من السفيه أن يحلم ، ولا من القوي أن يستكين . لأنك إن فعلت أرقت ماء وجهك وعدت بخيبة الأمل

٥ — لا تكن متحيزاً لأقربائك ، ولا محامياً لأصدقائك ، ولا باغياً في خصومتك ، ولا طاغياً في رياستك . بل اجعل العدل قائدك ، والحزم رائدك ، والكرم ملطفاً لشهوتك ، والمصلحة العامة على الدوام قبلتك

٦ — كن شجاعاً تكن صادقاً . فإذا اعتدت الصدق مشت الفضائل كلها في ركابك

٧ — افعل ما تراه حقاً وعدلاً ، ولا تحاول أن ترضي الناس جميعاً ، لأنك إن حاولت ذلك أسأت إلى نفسك ولم ترض أحداً

٨ — أذكر دائماً أن قيمة الأعمال بنتائجها ، فحذار أن تأتي عملاً تعرف مقدماً أن له نتيجة ضارة، اللهم إلا إذا أيقنت أن كفة الخير للمصلحة العامة أعلى وأرجح

٩ — إذا كنت تحب الحرية حقاً فلا تحتكرها لنفسك وتنكرها على غيرك

١٠ — حذار من لسانك وقلمك إذا كنت غاضباً أو ثائراً بعاطفة قوية فكلاهما يخونك ، واعتمادك عليه يجر عليك الندم أو الألم عند ما تهدأ وتستقر